34

انعكاسات

نهاية إدارة فورد

كما قُذف بي إلى الخدمة العامة فجأة انتهى كل شيء. فالمواضيع المهمة أُنجزت في القسم الجيد من عام 1976: العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، والدبلوماسية مع الصين، والتحالف الأطلسي. في شهر شباط قرر فورد ألا ينشغل بمفاوضات مراقبة الأسلحة الاستراتيجية إلا بعد الانتخابات. كما أن وفاة زهو إنلاي وبعده بتسعة أشهر ماد تسه تونغ، وما أعقب ذلك من الإطاحة «بعصابة الأربعة» المتطرفة، قد فرض انقطاعاً في الحوار مع بيجينغ. وقد وصلت العلاقات الأطلسية إلى مستوى من الود بحيث كان يلتقي رؤساء حكوماتها ووزراء خارجياتها بدون الحاجة إلى جدول أعمال خاص.

ما حدث أن الهدوء قد تحول إلى فرصة لتوسيع دبلوماسيتنا بتحرير أنفسنا بحيث بتنا نلتفت إلى مواضيع كانت الأزمات تضعها جانباً: المبادرة إلى حكم الأكثرية في جنوب أفريقية وإعادة صياغة العلاقات في نصف الكرة الغربي. ورغم كل ما حدث في لبنان فإن الحرب الأهلية فيها حافظت على عواطف الشرق الأوسط تجاه صانعي السياسة في أمريكا.

في مجرى تلك السنة الانتخابية الطويلة تعرضت وصايتي على السياسة الخارجية لهجوم متصاعد من المعسكرين المتعارضين للمثالية الأمريكية. ففي الرئاسة الجمهورية انتقد رونالد ريغان سياستنا الخارجية لتساهلها تجاه الاتحاد السوفييتي، أثناء الانتخابات الوطنية، وهاجمنا جيمي كارتر بسبب حدة موقفنا وحساسيتنا الشديدة تجاه حقوق الإنسان.

وكنت بالنسبة لكلا الطرفين بمثابة عصا الإضاءة. ومن دواعي السخرية أن هذا كان يعود إلى حد كبير إلى فضيحة ووترغيت، التي كنت خلالها بالإجماع مخولاً بصلاحية شبه رئاسية من أجل فصل الأمن القومي عن مشكلاتنا الداخلية المتصاعدة. وقد تابع جيرالد فورد دوري جزئياً للأسباب ذاتها وبسبب روابط الصداقة القوية والاحترام المتبادل التي قامت بيننا. ومع تقدم دور الرئاسة بالطبع فإن دوري القوي قد خفّض إلى حد ما مسيرة السياسة الأمريكية المتوجهة على نحو متزايد نحو تركيز شديد على القوة. ونتيجة لذلك تحولت إلى هدف بديل لهجوم المحازبين الذي يتوجه عادة إلى الرئيس.

هذا الموقف في حمأة الأحداث فاق طموحي. بل خيالي الجامح فيما يتعلق بخدمتي الحكومية. بصفتي أستاذاً في الجامعة، كان يجذبني بالطبع العمل في واشنطن، ولا سيما أثناء رئاسة كينيدي وبعدها. ولكن المنصب الأعلى الذي كنت أعتبره في متناول اليد هو رئاسة «هيئة تخطيط السياسة» في وزارة الخارجية أو الأمين العام المساعد الدفاعي لشؤون الأمن القومي (ISA). هكذا كانت أحلامي متواضعة بحيث إنه لما عرض علي نيكسون بعد انتخابه رئيساً «منصب مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض» بطريقته الموجزة، ظننت أنه يتحدث عن مديرية «هيئة تخطيط السياسة» في وزارة الخارجية.

كنت قد قابلت نيكسون مرة واحدة عام 1967 في مصافحة قصيرة في شقة كلير بوث لوس في نيويورك. وطوال ما يزيد على عشر سنوات كنت مدرساً في إحدى كليات جامعة هارفرد، حيث كانت المعارضة لنيكسون جزءاً من البرنامج. ومنذ منتصف الخمسينيات أصبحت مستشاراً لنيكسون روكفلر للشؤون الخارجية، والذي كانت كراهيته لنيكسون قد عززت معارضته السياسية له، والذي كان نيكسون قد هزمه مرتين في الاختيار للانتخابات الرئاسية، ولمدة سنة، في عام 1961، عملت مستشاراً لكينيدي في البيت الأبيض.

أشرت إلى أنني لم أكن تواقاً إلى العمل في الإدارة الجديدة، عندما عرض علي نيكسون، بعد ثلاثة أيام بعد محادثتنا القصيرة، منصباً في البيت الأبيض أي أن أكون مديراً بطريقة واضحة. وبدلاً من أن أتلقف الفرصة بتلهف، عرضت وضعي الأكاديمي والتزامي به وطلبت أن أُمنح مدة أسبوع كي أفكر في الموضوع وأشاور أصدقائي حول التخلي عنهم والعمل في إدارة نيكسون. وبدلاً من أن يدير ظهره لي أعطاني نيكسون مهلة الأسبوع ولم يكتف بذلك بل أعلن بلغة إنسانية أن أتحدث إلى أستاذ «مدرسة الحقوق في هارفرد»، لون فولر، الذي درّسه في ديوك.

وضع نيلسون روكفلر، الذي كان في مزرعته في فنزويلا، وبعيداً عن الاتصال الهاتفي، نهاية لترددي وقبولي منصب مساعد من جانب رئيس الجمهورية. وعندما عاد بعد يومين قال: «إن نيكسون لديه فرصة كبيرة في وجودك أكثر من فرصتك في وجوده»، وأضاف ما ينبغي أن يكون واضحاً: التقط سماعة الهاتف وأقبل العرض بدون أية شروط»، وهذا ما فعلته.

بعد هذا ما كنت أعلم أنني سأحظى بنفوذ عندما نُصّب نيكسون رئيساً. إذ أنني لم أكن من أركان الدائرة المغلقة للبيت الأبيض. وقد تطور دوري بالتدريج لعدة عوامل: شخصية نيكسون، كما سبق لي أن وصفتها : ازدراء «المؤسسة» له، ظروف الحرب الأهلية الوشيكة نتيجة لاحتجاج فيتنام، رفض البيروقراطية الأخذ بوجهة نظر نيكسون في الشؤون الخارجية بمعناها الظاهري، والطريقة التي كان يدير بها نيكسون حكومته. جميع هذه العوامل ضاعفت من شعوره المتأصل بالعزلة، وعززت ميله إلى أن يعمل في «البيت الأبيض» من خلال عدد محدود من المساعدين الشخصيين.

أعضـاء حكومة نيكسـون المعنيون بالسياسة الخارجية إما زملاء بحكم فترة العمل الطويلة معاً، وإما أعضـاء جـدد يعملون في السياسة الخارجية جاؤوا من عالـم السياسة. أي من الطرفين لم يكن يبدي أي اهتمـام قوي بالسياسة الخارجية، وكانـوا يفتقرون إلى الفهم الاستراتيجي لنيكسـون أو يتعاطفون كثيراً معـه. معظمهم كانوا ممن يتعرضون للانتقاد بسبـب الاحتجاج على حرب فيتنام. وكانوا يذعنون لسياسة نيكسـون العالميـة بدون شعور حقيقي بالراحة. وبالنتيجة تعرضت للانتقاد ـ جزئياً أو عن خطأ ـ بوصفي المفاوض والمنفذ الأول لسياسة نيكسون الخارجية. لقد أصبحت الناطق باسم هذه السياسة، رغم عدم خبرتـي بالمؤتمـرات الصحفية. وحتى شهر ت1 1972 كانت تصريحاتي دائمـاً «غير مباشرة». أي أنها لا تنسـب إلي ـ لأن نيكسون كان يخشى أن تزعـج المواطنين (ولم يُرفع هذا الحصر إلا في الأشهر الأخيرة من ولاية نيكسون الأولى).

في نهاية إدارة فورد ازدادت الصدمة التي يمكن أن تتحول إلى مسألة سياسية بالنسبة لي، فقد أصبحت الانتقادات الهجومية جزءاً من المشهد السياسي الدائم بالنسبة إلي. كان للنزاعات أسباب كثيرة، بعضها يتعلـق بصميم شخصيتي بـلا شك، وأسلوبي فـي إدارة السياسة الخارجية. ولكـن مصدرها النهائي كان حاجة أمريكا إلى التكيف مع عالم ليس لديه أجوبة نهائية، حيث كل حل كان بداية لتحدٍ آخر، بعبارة أخرى علاقـة أمريـكا المنفردة بالتاريخ. كانت تـدل على ثورة، وهو ما سنناقشه فيما بعـد في هذا الفصل، ضد عالـم ذي تعقيـد دائم ـ تواق إلى نوع من المعالجات الحاسمة التي كانـت تقليدياً الأفكار الرئيسية للتاريخ الأمريكي: السعي إلى سلام دائم يتم بالانتصار الحاسم للقيم الأمريكية أو سيطرة القوة الأمريكية.

نقلـت هزيمة جيمـي كارتر لجيرالد فورد فـي 12 ت2 1976، هذه المجادلات من عالـم السياسة إلى المستـوى الفلسفـي، وبقدر ما يعنيني الأمـر، وضعت حداً لدوري في الصياغـة المباشرة لسياسة أمريكا الخارجيـة. لـم يحدث هذا بين يـوم وليلة. فبعد شهر مـن الانتخابات استمـرت الدبلوماسية اليومية في طريقهـا بدون تغييـر وكأنها طيار واحد، الفـارق الأساسي أن التخطيط طويل الأجـل قد توقف بدرجة أو بأخرى. ولكن ما إن عُيّن سابروس فانس وزير خارجية ثان في 10 ك1 حتى تحولت السلطة بشكل محسوس وبتشجيع قوي مني. مع كل أسبوع يمر كان دوري يزداد أكثر فأكثر أهمية ولكن نفوذنا في المفاوضات حول حكـم الأكثرية فـي روديسيا انخفض باندفاع. الجهـود الدبلوماسية الكبيرة ـ الحد مـن التسلح، والشرق الأوسـط، والصين، وتحالف الأطلسي. كانت تنتظر الإدارة الجديـدة. آثار دبلوماسيتنا في لبنان صممت برأفـة وقد توقفت الحـرب الأهلية أثناء فترة انتقـال النظام بفضل الديناميات التـي وضعناها من قبل، والتي هي غالباً لمراقبة إطلاق النار ظرفياً. كانت الأمور تزداد سوءاً.

كان هنـاك جانبـان للانتقال للرئاسة: استمرار السلطة، أو ظهور مقاربـة جديدة للسياسة. الإدارات الجديـدة تبـدأ عادة بالمبالغة في درجـة المرونة المفتوحة أمامها. ولما كانت واعيـة لجميع الأفكار التي

تستطيع أن تحسنها في الوقت الذي لا تكون فيه مُثقلة باتخاذ القرار، فإن القادمين الجدد يقومون عادة بمراجعة شاملة للسياسة القائمة، ويغيرون الروتين ويحملون معهم هواء جديداً منعشاً لدهاليز البيروقراطية.

الفترة الانتقالية هي في وقت واحد فترة آلام وفترة أمجاد لنظام الحكم الأمريكي. مؤلمة لأنه لا شيء أهم من القيام بدور تنفيذي شخصي من الخدمة العامة، ولا سيما في الدوائر العليا. فكل عمل يواجه عواصف بيروقراطية وإعلامية، ويمكن أن يكون له بديل. ولا توجد أعمال في الخارج يمكن أن تقارنها في أهميتها. أخبرني أحدهم أن دين أتشيسون قارن مغادرته لوزارة الخارجية بأنها أشبه بنهاية قصة حب عظيمة. والحق أنها، بالنسبة لي، من أكثر التجارب إثارة في حياتي كان يومي الأخير في الوزارة عندما فتحت الباب لكل من يريد وداعاً، وقد انصفّ مئات من مستويات الموظفين كافة لساعات كي يودعونني. كان هناك جزء مني خلّفته مع أولئك الرجال والنساء الذين واللواتي وقفوا إلى جانبي في كثير من الأزمات والآمال.

وكما حدث فإن انتقال السلطة جرى بيسر مع الاعتراف بأنه يترافق مع تغير السياسة. استغرق هذا بضعة أسابيع. وكان فانس الرجل المهذب المقتدر للقيام بذلك. وعندما قابلت جيمي كارتر ونائب الرئيس ــ المنتخب دولة مونديل كانا يتحليان بالصبر والمجاملة عندما عرضت السياسة الخارجية على أنها تصور أساسي مستقيم لما كان قائماً ـ وبعد كل شيء هي سياسة رسمية لأننا استخلصنا أنها كانت تمثل التوجه الأفضل. كان الوضع مختلفاً عندما أعطيت التعليمات لاندرويونغ وزبيغنيو بريجينسكي، وبعض مساعدهما في مكتبي في وزارة الخارجية حول السياسة الخارجية. قد تبدو الجهود التي قمنا بها مؤلمة ولكنها كانت حتمية أيضاً. وقد وعدت الإدارة الجديدة على كل حال، بتغيير الأمور.

إن التأثير الشخصي على الإدارة المغادرة والتغيرات في الرئاسة تشير إلى حيوية النظام الأمريكي. إذ لا توجد ديمقراطية أخرى تجرؤ على المخاطرة باستقرارها وحياة كبار موظفيها في فترات متتابعة. آلاف الأعمال تغيرت، بعضها آلت إلى أفراد ليس لديهم خبرة سابقة في ميادينهم الجديدة في المراتب العليا. وفي حين أن التحول يتضمن معوقات هائلة من الاستمرارية، فإن ضمانه ضد خطر الانهيار أو إدارة السياسة بدون فهم. إنه قبل كل شيء يدل على تماسك مجتمعنا. التحولات التي تابعتها عن كثب كانت تدل دلالة بالغة على النية الطيبة حتى لو كانت الحملات الانتخابية التي سبقتها مريرة في كلتا الفترتين 1968–1969 و 1976– 1977 لم يؤثر أي حقد شخصي في الإضرار بالتعاون بين الحكومات الذاهبة مع مؤيديها.

من المؤكد أنه لم توجد عملية انتقال للسلطة تمت برقة مثل انتقال السلطة من جيرالد فورد إلى جيمي كارتر. ولم يكن هذا من قبيل الصدفة. إذ كان فورد فخوراً بأنه قد أرسى الهدوء في أعقاب

ووترغيـت، وحقق هـدوءاً وتوازناً كبيرين لحكومتنـا ومجتمعنا. هذه العملية تحتاج إلـى أن تُتوج بتحول السلطة بما يعبر عن المصالحة الوطنية.

أفهـم فورد جميـع موظفي حكومته أن عليهم واجبـاً لتسهيل مهمات من يخلفهـم. وبالنسبة لي كانت هذه مهمة سهلة. فسايروس فانس كان صديقي لفترة طويلة وكانت تعجبني أفكاره. فباختصاصه محامياً كان صلبـاً حسن الاطلاع وجديراً بالاحتـرام، وليبرالياً، ولكنه كان يعـرف وزارة الخارجية وكفيلاً باتباع سياسـة واعيـة. عيّنت فيليب حبيـب الأمين العام المساعد للشـؤون السياسيـة والدبلوماسي المتميز في عمله، ضابط اتصال. كان حبيب مُكلفاً بالتأكد لأن فانس كان يتلقى جميع الوثائق المتوفرة حول مشكلات راهنة (بما في ذلك المفاوضات الجانبية) وجميع البرقيات التي تتجاوز المهمات الداخلية، كنت ألتقي بفانـس مرتين فـي الأسبوع على الأقل لمراجعـة موقفنا قبل 20 ك2، وإنني لـم أنقطع عن غير قصد عن خطط الإدارة الجديدة.

لـم يُظهـر جيرالد فورد مـرارة أو حزناً نتيجة للهزيمـة الانتخابية، ولم يشك فـي حضوري. ولا في حضـور أي شخصـ آخـر. من هجمات رونالـد ريغان القاسية أثنـاء المنافسة أو رفض ريغـان أن يتجاوز التأييد اللفظي. إن وجد. أثناء الحملة الانتخابية العامة، وكلاهما كانا عاملين رئيسيين في هزيمة فورد. كمـا لم يُعلّـق فورد على تهكم الكونغرس الذي أحبه حقاً واحترمه، والـذي أعاقه بقيود لا سابق لها وأعاق كثيـراً من جوانـب سياسته الخارجية. لم يلتفت فورد إلى أولئك الذين نـددوا ببعض سياساته، ولم يصر علـى إنجازهـا بنفسه فحسـب، ولم يحاول قط أن يلقـي اللوم على تقصير موظفيه. وعلـى مدى أكثر من عشرين سنة منذ مغادرته للسلطة كان أعضاء حكومته وكبار موظفيه وزوجاتهم ـ وهم تقريباً مئتي شخص يلتقـون علـى العشاء كل حزيران للاحتفال بعملهم سوية، وللتعبير قبـل كل شيء عن امتنانهم لما حصلوا عليه من امتياز في خدمة رجل قوي وشريف ولطيف حقاً.

إذ يستطيعـون أن يفخروا بلائحة طويلة من الانجـازات في السياسة الخارجية. فقد استطاعت إدارة فورد أن تعالج سقوط الهند الصينية بشرف ولياقة، وتجاوزت نزاعين عرقيين شديدين ـ في قبرص ولبنان ـ حائلـة دون انتشـار أوسع، وفي مجال النزاع العربي ـ الإسرائيلـي، حافظت على دور أمريكا الدبلوماسي المركزي، وانتقلت من إزالة بقايا الحرب وآثارها باتخاذ خطوات حاسمة نحو السلم. وفي علاقات الشرق والغـرب، اتخذت سياسة القوة فـي وجه سياسة الكونغرس ضد سلب ميزانيـة الدفاع ووكالة المخابرات. وقاومت محاولات الكرملين لتوسيع النطاق السوفييتي مع فتح المجال أمام تحسين العلاقات مع الخصم السوفييتي إذا ما عدّل من إيديولوجيته واتبع سياسة خارجية كدولة لا كقضية.

وقّـع فـورد تحت ضغط شديد، «قانون هيليسنكي النهائي لمؤتمـر الأمن الأوروبي» الذي يعتبر من قبـل الأجيال رمزاً واضحاً لانتصار الغرب على الشيوعيـة. وبتأهبه لأزمة الطاقة قام بتعاون لا سابق

لـه بيـن الديمقراطيات الصناعية وجعل منها ما بـات يعرف اليوم بالقمـم الاقتصادية للدول السبع الكبرى.

وحتى هذا اليوم ما يزال هيلموت شميدت، وفاليري جيسكار ديستان، وجيمس كالاهان يقضون عطلة الأسبـوع في «فيل» ـ كولـورادو، كل سنة معاً مع زملائهم الأمريكيين السابقيـن وأخيراً حقق فورد، تحت ضغوط سنة المفاوضات، اختراقاً في تحقيق حكم الأكثرية في روديسيا، ومعاهدة قناة باناما الجديدة ـ جميع هذه الأشياء خلال ثلاثين شهراً في السلطة فقط.

والأهـم مـن ذلك، عندما كانـت العواطف ما تـزال تتدفق تخلص فـورد بسياسة خارجيـة متماسكة مـن مذبحـة فيتنام وفضيحة ووترغيت. وقـام بهذا الإسهام على الرغم من أنـه كان الرئيس الوحيد غير المنتخب، وشعر الكونغرس ووسائل الإعلام بالتحرر من بعض القيود على الإدارة الشخصية.

حقق فورد كل ذلك بدون تكلف مسرحي ومشاهد عاطفية لأنه لم يكن يشبه الزعماء السياسيين الذين يحاولـون أن يُظهروا أنفسهم في العمليات الانتخابية العادية في بلادنا. ربما لم تظهر أهمية القيادة أكثر من هذه الفترة. ولكن نادراً ما كان من الصعب الجمع بين الطموح والأداء. المهمة النهائية للزعيم أن ينقل مجتمعـه من حيـث يكون إلى حيث لم يشهد قط. ولكن هذا يتطلب رغبة فـي الانتقال إلى الطريق العسير مـا بين تجربة الأمة ومصيرهـا. إنه محكوم بأن يبقى وحيداً إلى أن تتوفـر للمجتمع الخبرة في الإمساك بإمكاناتـه. والزعيم الـذي يسير بعيداً في هذا الطريـق على حساب خسارته يمسـك بشعبه وقدرته على صياغـة الأحـداث. كما حدث لورد ويلسون. الزعيم غير الراغب فـي المخاطرة بأعمال فردية يحكم على نفسـه وعلـى مجتمعه بالركود. والشاهد هم الزعماء الديمقراطيون فـي فترة ما بين الحربين العالميتين في أوروبا. ولهذا ربما كانت الشجاعة أهم صفة شخصية للزعيم الناجح.

الزعمـاء المعاصـرون يتوقون إلى أن يتصفوا بأنهم أقوياء بـدون أن يدفعوا ثمناً لذلك. إنهم يخافون فطريـاً مـن الوقوف بمفردهم، وينتظرون أن تُمتدح شجاعتهم في صحف المساء. الارتجال بدلاً من عمق التفكير، والتكيف بدلاً من المهارة في التحليل هما مايسيطران على صفاتهم المميزة.

النتيجة التي نسترجعها من «ووترغيت» أنها أعطت الولايات المتحدة زعيماً من قالب مختلف ففي عصر الإعـلام الجماهيري الواسع، حيث تكون المهارات الفعليـة الرفيعة من بين الصفات التي تُعزى إلى الزعماء الوطنيين، فإن تبعية فورد في الكونغرس إلى مدينة صغيرة في أمريكا الوسطى الغربية، تجعل إخلاص المرء يحتـل المـكان الأول أكثر من البراعة. ولما كان فورد لا يتصف بسرعة الإجابـة وارتفاع الصوت فقد كان في نظـر كثيـر من وسائل الإعلام غير ملائم. والحق أن فورد المتخرج مـن «مدرسة بيل للحقوق» كان لديه عقل تحليلي من الطراز الأول. ولما كانت التلفزة تهتم بالمظهر أكثر من الجوهر فإن الإعلام كان يتهمه بالابتعاد عن الشكليات غير الملائمة رغم أن الصحفيين كانوا يعرفون جيداً أن هذه حقيقة تكوينه.

أحيانـاً ينقلـب نقص سرعة الخاطر عند فـورد إلى مصدر قـوة. فخلافاً لكثير مـن السياسيين من متوسطـي العمر لم يكن يحـول المشكلات المعقدة إلى شعارات، بل يعمل علـى إدراك كنهها. صحيح أنه لـم يكن مفكراً واسع الإدراك إلا أنه كان عملياً ويُقبل بسرعة على الأفكار التي تطرح حلولاً. وعندما يلتزم بعمل ما فإنه يتابعه بغض النظر عن نتائجه السياسية أو الشعبية. كما فعل بالنسبة إلى «ميثاق هيلسنكي النهائـي للأمن الأوروبـي»، واتفاقية سيناء المرحلية، ومفاوضات باناما، والسياسة التي حققت اختراقاً باتجاه حكم الأكثرية في جنوب أفريقية.

وعلى الرغم من احترام فورد للكونغرس فقد كرس نفسه للدفاع عن السلطة التنفيذية. واستخدام حق الاعتراض على عدد من قوانين الكونغرس، وجابه الكونغرس فـي قراراته المتعلقة بالسياسة الخارجية. وكمـا أظهـرت إدارته فقد كان فـورد يفتقر إلى الريـاء وأصبحت جزءاً من عملية معالجـة. وبالنسبة إلى الناجين المروعين من المعركة في فترتي فيتنام ووترغيت داخل الحكومة، فهم فورد أن الهدوء والصفاء، كان لهـا تأثـر تهدئة كبير. واستطاع أن يوجـد النمط الخاص به في القيادة فـي الداخل والخارج بسرعة ملحوظة أفستناكم كنا قريبين من الفوضى التي جلبتنا إليها ووترغيت.

فهـم فـورد أنه من أجل أن يحقق هدفه فـي المصالحة الوطنية عليه أن يبـدل أسلوب عصر نيكسون المزاجي بأسلوب أكثر شفافية ويتصف بطابع شخصي أقل في الحكم. القرارات ينبغي أن تظهر. ويتجلى أنها تظهر. من خلال عملية واضحة، وليس من خلال أمر تنفيذي. قرارات فورد المعدة لا تضمن موافقة جوهرية، ولكنها تساعد على اقتلاع المرارة من النزاعات السياسية وتسمح بإيجاد إطار يمكن الاتجاهات الكبرى في سياسة إدارة فورد من أن تستمر في عهد خلفائه.

لمـا كان دستورنـا يمنح سلطات غير عاديـة للرئيس، فلا توجد قواعد مطلقة حـول صياغة السياسة وإدارتها، فهناك مساحة متروكة لرؤية الشخصية التنفيذية الأولى وبنائه الفلسفي. ومع هذا فقد استقيت بعض المبادئ العامة مما لاحظته أو درسته.

أولهـا: إن عمليـة اتخاذ القرار الفعال ينبغي ألا تشغل وقت الرئيـس في مسائل ثانوية، بل على العكس ينبغـي أن تركز انتباهـه على تلك المسائل التي يستطيع هو وحده أن يقررهـا. مثل هذه المسائل يجب أن توضـع أمـام الرئيـس، لا أن تترك جانباً على أمـل أن يحلها شخص ما أو تجعل النزاعـات البيروقراطية تتجلى.

وثانيهـا: أن تتـاح للرئيس كل فرصة لكي يتجاوز أزمة حكومية تتخذ فيها قرارات في وقت لا تتوفر فيه المعلومـات الكاملة، وإجراءات العمل لم تتضح بعـد. وإذا كان عليه أن ينتظر طويلاً فإنه سيخسر القدرة علـى صياغـة الأمور. لذا لا ينبغي تحديـد المسائل بشكل صحيح فحسب، بـل أن تعالج مع استمرار وجود فرجة للعمل المبدع.

وثالثها: أن القرارات ينبغي أن ترسم منهجاً معيناً للعمل، وليس نظرية عامة أو قاسماً مشتركاً بيروقراطياً.

ورابعهـا: أن عملية اتخاذ القرار ينبغي أن تتضمن أكبر عدد ممكن من أولئك الملزمين بتنفيذه وهذا مـا يعطيهـم سنداً في التنفيـذ والعرض أمام الجمهور معاً. العمل المنفرد غالبـاً ما يمنح مزايا من حيث السرعـة والتصميـم والمرونة كما أظهرت فتـرة نيكسون الأولى. ولكن باعتبارها ظاهـرة دائمة للسياسة الخارجية، فإنها تعرض التماسك والاستمرارية للخطر[1].

وخامسهـا: أن القرارات يجب أن تعكـس خيارات التفكير السياسي الجيد، أي أنها يجب أن تجيب عن هـذه الأسئلـة: ماذا نحاول أن نحقق، وماذا نحاول أن نمنع؟ ما هـي النتائج التي نتوقعها من هذا القرار، ومـا هي الخطوات التي تدور في ذهننا للتعامل معها؟ ما هي تكاليف العمل المقترح؟ وهل نحن مستعدون لدفع الثمن وحتى في أية فترة من الوقت؟

وأخيراً: لا بد من وجود إجراء يرصد أن قرارات الرئيس تنفذ بأمانة من الأوجه كافة

لا يتخـذ أي إجراء حتى يعـرف الرئيس أهدافه وحتى تتوافق هذه الأهداف أو الأغراض مع المصلحة الوطنيـة والعالمية، وأن يكون لديه الشجاعـة كي يدافع عن قناعاته أمام المعادين لها وأن يتمتع بالمهارة السياسيـة لحشـد تأييد شعبـي كاف ليدافع عن الموضوع. وهـذا يختلف عن طرح سياسـة خارجية على اقتـراع الآراء. لأن الجمهور لا يغفر لقواده وقوع الكوارث حتـى لو وقعت هذه الكوارث بعد التصويت عليها لصالحه، كما حدث لنيفيل تشامبرلين بعد ميونخ وهو ما يعتبر شاهداً على ذلك.

اتبـع فـورد معظم هذه المبادئ إلى درجـة ملحوظة، لا لأنه قرأ كتب العلـوم السياسية، بل لأنها كانت جـزءاً مـن تكوينه السيكيولوجـي[*]. وهذا ما مكّنه من أن يقـود بلاده بأمان عبر مخاطـر كثيرة في مياه مضطربة، ولماذا كانت رئاسته تمثل ـ وهذا سبب رئيسي ـ فترة تجديد.

الأخلاق والبراغماتية

جـاء جيرالد فورد إلى الرئاسة عندما وصلت سياسة أمريكا الخارجية إلى حدودها. فقد ترأس عند الانهيـار الكامـل للهند الصينية الذي نتج عن قـرارات اتخذت قبل وقت طويل مـن رئاسته. ولكن فيتنام كانـت رمزاً وليست سبباً، للصدمة الوطنية لفترة السبعينيات التي ظهرت نتيجة للفجوة ما بين القناعات التاريخيـة المتعلقة بمهمة أمريكا والتحديـات العملية لبيئة دولية جديدة. لقد كانت الولايات المتحدة في الجزء الأكبر من تاريخها قادرة وقوية بدرجة كافية وبعيدة عن بقية العالم لتثبت الافتراض أنها الوحيدة مـن بين جميع الدول الكبرى في العالم التي كان لديهـا الخيار بالالتزام أو عدم الالتزام بدور دولي، وإذا اخترنا الالتزام فلسوف نكون قادرين على أن نتجاوز، ضمن إطار زمني محدد أي تحد يستدعي تدخلنا.

(❖) في المراحل الأخيرة من اتفاقية سالت عام 1976 سقطت الحكومة. ولكن فورد أدرك السبب وخضع للحاجة السياسية الداخلية.

مع تقدم الحرب الباردة، تبيّن أن الفرضيتين خاطئتان إلى حد كبير. فقد وجدنا أنفسنا متورطين في نزاعات في أجزاء من العالم لا يستطيع معظم الأمريكيين تحديد أماكنها على الخريطة إما لأنها مجهولة، وإما لأنها تتطلب جهوداً لا يبدو لها نهاية. بهذا المعنى فإن اضطرابات أواخر الستينيات والسبعينيات أحدثت ثورة، وكانت حرب فيتنام رمزاً لعالم لا يسمح بالتهرب من أجوبة نهائية أو التهرب من حقائقها.

اتخذ شكل هذه الثورة الطابع الكلاسيكي الأمريكي: ليس كبحث لفهم أفضل لظهور عالم جديد، بل كجهد لإرغامه على التلاؤم مع مبادئنا الأساسية أو قوتنا. رفض القيود، كلا قطبي الجدل الداخلي الأمريكي طرح بشكل متزايد ويلسونية جازمة ومقاتلة. إحدى المجموعتين اتهمت الطبيعة الشاملة. كما بدا لها. تعود إلى أن دورنا الدولي أخطأ في فهم المثالية الولسونية. وفي رأيها أن خيبات أملنا يمكن أن تنتهي عن طريق إشاعة الديمقراطية في أرجاء العالم عن طريق الإقناع إن أمكن، أو بالضغط إذا كان ذلك ضرورياً. لقد أخفقنا في فيتنام، كما تقول تلك الفئة، وواجهتنا وتورطنا في مصاعب في أماكن أخرى لأننا اخترنا وسائل لا تتوافق مع قيمنا في دعم زعماء غير قادرين أو غير راغبين في العمل وفق مبادئنا، كانت دعوة للتطهير الأخلاقي ـ بطريقة الانسحاب المؤقت إذا اقتضى الأمر ـ وذلك كمقدمة لخلق عالم جديد يعكس أسلوب أمريكا في الحكم.

أما الانتقاد المعاكس فيرى أن ما يُحبطنا لم تكن النقائص الأخلاقية ولكن عوائقنا الداخلية ضد النشر الكامل لقوتنا من أجل تنفيذ قيمنا الراسخة. كسب الحرب الباردة، والسلام يمكن تحقيقه لا عن طريق الاحتكاك، كما كان يقال ـ وفقاً للسياسة السائدة. بل بالحشد الإيديولوجي والمجابهة المتعمدة.

وبالنتيجة ركز أحد أجنحة الجدل القومي حول السياسة الخارجية على تخفيض الاعتماد على القوة بتخفيض ميزانية الدفاع وفصل كثير من الأدوات ـ مثل وكالات المخابرات – التي كانت تُستخدم في الحرب الباردة. وفي الوقت نفسه كان التيار المعاكس يحضّ على السياسات التي تُكثّف الحرب الباردة بتشغيل هذه الأجهزة التقليدية التي لا يمكن الاستغناء عنها.

عندما استلم فورد السلطة وجد نفسه وسط هذه الدوافع المتناقضة وضغوطها الشديدة. كان الكونغرس والإعلام يؤيدان بصورة عامة وجهة نظر الجماعة الليبرالية التي كانت ترى أن السياسة الأمريكية متوجهة بشدة نحو الحرب الباردة، وغير مهتمة على نحو متزايد بحقوق الإنسان وتهمل تنمية البلاد الأخرى. ولكن رد الفعل العام تجاه انهيار فيتنام سار في الاتجاه المعاكس. وكانت فلسفة المحافظين الجدد القائمة على المجابهة العقائدية العنيفة تكتسب أساساً مكيناً. ولم تكن هيمنة وسطوة ريغان إلا رد فعل على ما شعر به الشعب الأمريكي من إذلال في فيتنام.

هذا الجدل الفلسفي المتنكر في تنافس سياسي ساد فترة إدارة فورد بأكملها. ونادراً ما كانت المشكلات الحقيقية تلك التي تحتل عناوين الصحف، بل هي ناجحة عن الآراء المتعارضة حول طبيعة السياسة الخارجية

الأمريكيـة. واستناداً إلى علاقتنـا المتحسنة مع حلفائنا، والدبلوماسية الثلاثية مـع موسكو وبيجينغ حيث كان لنـا مركز الريادة، وإدارتنا لدبلوماسية الشرق الأوسط، وإضعافنـا لراديكالية العالم الثالث، نظن أننا أظهرنا سياسة خارجية حكيمة تجمع ما بين الانسجام مع المثل الأخلاقية والقوة بدلاً من المخاطرة بكل شيء، وملاحقة هذا أو ذاك، ونعتقد أننا أبدينا سياسة خارجية حكيمة. كانت سياستنا في تحقيق التوازن قد سارت على عكس منهج ويلسون في مهمة أمريكا، فنحن أكدنا على التدرج أما منتقدونا فقد أكدوا على الإنجاز المُلح.

صعوبـة تحقيق الشعور بالتناسب قـد تعاظم أثناء فترة رئاسة فورد لأن مجتمـع المثقفين الذي يُزود الآفـاق والتوازن، كان هو نفسه يمر بعملية تحول نحو مجموعة مصالح سياسية أخرى عندما بدأت حياتي الأكاديميـة فـي بداية الخمسينيات، لم يكن أساتذة الجامعة ينظرون إلـى أنفسهم كمشاركين في العملية السياسيـة. من أجل أن يكون لهم تأثير فـي السياسة، فكان لا بد أن يطرحوا وجهة نظر بعيدة أو متوسطة المدى. هذا كان مساعداً جداً لصانعي السياسة الذين يشعرون بخطر ما هو مُلح على حساب ما هو مهم وإلى النفعي على المدى الطويل.

غيّرت رئاسة جون ف. كينيدي كل ذلك. إذ لم يحصل من قبل أن دخل هذا العدد الكبير من المفكرين في عالم الرئاسة، مما رفع بصورة آلية التوقعات في أذهان أولئك الذين لم يكونوا يتوقعون أن يكونوا من صانعي السياسة من قبل. (لقد جلب البرنامج الجديد the new Deal قلة من المفكرين بصفة مستشارين ولكن ليس بصفة صانعي سياسة كما حدث في عهد كينيدي). وكان لهذا فائدة. فإذا كانت قد قلصت من آفاق المفكرين إلا أنها دفعتهم نحو التركيز على ما هو مُلح وملموس. كما أنها دفعت أولئك الذين يعملون في المكاتب إلى نوع من الغيرة المحفوفة بالغيبة من خريجي الكليات.

الصدمـة وخيبة الأمـل اللتان أعقبتا اغتيال كينيـدي قد صاحبهما شعور بخيبـة الأمل نتيجة الشعور بالذنـب حيـال حرب فيتنام. عنصـر التوجه نحو السياسة لـدى مجتمع الأكاديميين انقسـم إلى قسمين متحاربيـن: الطامعون في العمل المكتبي في واشنطن والذيـن عادة يُصنفون بالمرشحين السياسيين، أو يصبحـون كتاباً سياسيين. أو المتطرفين الدائمين الذين يبحثون في الشؤون الفلسفية. وهؤلاء مرشحون أيضـاً للعمـل فـي المكاتب إذا سـادت وجهات نظرهم، كمـا حدث جزئياً فـي عهد إدارة كلينتـون. وكلتا المجموعتين تخلت عن الدور التاريخي والفكري في دفاعهما عن النضال السياسي.

لقـد استغرق منـي وقتاً طويلاً أن أفهـم مدى عمق هذا الذي وصـل إليه الانشقاق. ففـي بداية إدارة نيكسون. أرى الآن كم كنت ساذجاً بشكل لا يصدق عندما اعتقدت أن الانقسام حول فيتنام يمكن تجاوزه إذا مـا أظهـرت الإدارة الجديدة رغبـة صادقة في إنهاء حـرب فيتنام وفق شروط مُشرّفـة. وسرعان ما اكتشفـت أن الجـدل الحقيقي لا يدور حـول السؤال العملي حول الشروط المعقولـة لإنهاء الحرب بل حول تحديد معنى الكرامة الوطنية.

وعلى نحو مشابه، خلال فترة حكم فورد وريغان عزوت انتقاد المحافظين ولا سيما المحافظين الجدد إلى سوء الفهم. لأنني كنت أشاركهم في عدم ثقتهم بالشيوعية وتصميمهم الظاهري على الحيلولة دون تحقيق أهدافها. واعتقدت لفترة من الزمن أنهم تحققوا أن هدفنا ليس استرضاء الاتحاد السوفييتي بل تحطيم مناورته، ولذا علينا أن نجمع القوى من أجل قضية مشتركة. ولكن لم يكن ثمة سوء فهم. فانتقادات المحافظين الجدد أرادت أن تسود باسم الأيديولوجيا، وليس باسم التكتيك الفائق. والحق أنهم لم يروا وسيلة أخرى للولايات المتحدة كي تسود.

ومن دواعي السخرية أنني أيدت بعض أهداف كلا جانبي الخلاف. إذ وافقت على رغبة الليبراليين في إنهاء حرب فيتنام، ولكنني أصبحت أكثر قناعة بأن الاتجاه الوحيد الجانب لقناعتهم ساق الولايات المتحدة إلى اتجاهات لا تتوافق مع كرامتنا. شاركت تقريباً في جميع الأهداف البعيدة للمحافظين. ولكنني أظن أنهم لم يقدروا بشكل صحيح الظروف التي ينبغي أن تنفذ فيها هذه الأهداف.

أما بالنسبة إلى فيتنام فقد أصبحت مقتنعاً في زيارة قمت بها عام 1965 أن الحرب لا يمكن أن نكسبها بالأساليب التي التزمنا بها، وأنه لا بد من إيجاد مخرج مشرف. ولكن الاحتجاج ـ الراديكالي، الذي أصبح فيما بعد موقفاً ليبرالياً، هاجم بعنف تورط أمريكا كنتيجة حتمية للقدرة المستترة لمجتمعنا على العنف والامبريالية، وتحديده للشرف أصبح نتيجة مهينة وضعت نهاية لهذه النزاعات البغيضة مرة وإلى الأبد.

كانت هذه المسألة الحقيقية بيني وبين كثير من المجتمع الأكاديمي في ذلك الحين. لما كنت قد وجدت ملجأ من الظلم النازي في الولايات المتحدة، فقد عانيت شخصياً ما تعنيه أمتنا بالنسبة إلى بقية العالم، لاسيما بالنسبة للمظلومين والبؤساء. لهذا كنت أنظر إلى تجربة فيتنام كنتيجة لمثالية أمريكية، في حماستها للإصلاح العالمي، قد أقيمت في مناطق حيث العلاقة بين الغايات والوسائل قد ضاعت[2]. الراديكاليون كانوا يحتجون ضد العيوب المزعومة لأمريكا ويفسرونها كرموز للهيمنة البدائية. رأيت في الخلاصة المشرفة لفيتنام تحدياً يمكن أن تتعلم بلادنا منه تعقيدات عالم رغبتنا في السلام فيه محدودة بالتزامنا بشرف الأمة. ولكن الليبراليين لم يستوعبوا هذه المعادلة. إذ كان الطريق الواحد بالنسبة لهم للتحرير، أي إقامة بسلام بأية شروط إذا لزم الأمر، هو التخلي عن كل شيء قاتلنا من أجله. لم يكن الجدل حول السياسة بل حول جدارة أمريكا في إدارة أية سياسة خارجية على الإطلاق.

مع ظهور تحدي المحافظين الجدد انعكست الأدوار، فسياستنا تجاه راديكاليي الاحتجاج على فيتنام كانت قاسية جداً، في حين كانت معتدلة جداً بالنسبة للمحافظين ولا سيما المحافظين الجدد. لقد أصروا على اقتراحين: التحديات للسلام جاء على نحو ثابت من الحكومات غير الديمقراطية، ولهذا فإن على الولايات المتحدة الالتزام بجعل عملية الديمقراطية تتقدم في جميع البلدان في وقت واحد وباستخدام

العقوبـات على الأقل، وأن سلاح حقوق الإنسان هـو السلاح الأكثر فعالية الذي نستطيع بواسطته الإطاحة بخصومنا الشيوعيين وهزيمتهم.

وافقـت على الهدف ولكننـي اعتبرت النتائج شديدة التبسيط. فمن الغـرب لا تنشأ الديمقراطية عن قـرار فردي بل عن تطور يستمر قروناً علـى الأغلب. المزايا المنفردة للنهضة الجماعية الغربية بدأت مع الكنيسة الكاثوليكية، التي في حين كانت ديمقراطية بالكاد في تنظيمها الداخلي فقد أوجدت الأساس لها بالإصرار على حكمها المتميز، وتحديد النظام الأخلاقي كمثل أعظم لتلك الدولة.

هـذا التقسيـم للسلطة بين الله وبين القيصر ارتقى في الخطوة الأولى نحو التعددية السياسية والحد من سلطة الدولة. وبعد قرون ترسخت التعددية عندما هزم الإصلاح «الكنيسة العالمية» بالتأكيد على دور الوجـدان الفـردي. هذه الاتجاهات تسارعـت بثورة «التنوير»، التي أكدت علـى سيطرة العقل، في «عصر الاكتشافـات» الذي وسّع الآفاق الفكرية، وبالرأسمالية التي كافأت الاستقلالية الفردية والمبادرة ووسعت الطبقة المتوسطة.

لـم تُحدث أية ثقافة أخرى ثورة مشابهة. في المجتمعـات الإسلامية الفرق بين الجامع والدولة معقد لأن آيـات القرآن بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين يجـب أن تُنفذ في كل جانب حتى جوانب الحياة العلمانية. ومـن المحتمل أن تؤدي العلمنة إلى توترات مـع الدين. في معظم المجتمعات الكونفوشيوسية لا الدين ولا الجماعات غير الحكومية لديها التنظيم، والاستقلال الذاتي أو العقيدة التي تشجع على ظهور مركز بديل للسلطة السياسية.

لهـذه الأسباب كنت قلقـاً إزاء تحويل المبادئ الدستورية التي استغرقـت قروناً حتى تظهر في الغرب الهـدف المتفـوق للسياسـة الخارجية الأمريكية، الذي يحقـق بضغوط مكشوفة بغض النظر عن التاريخ والظـروف الاجتماعيـة للمجتمعات الأخـرى. ولا شك أن الانتهـاكات المستمرة لحقـوق الإنسان لا يمكن التغاضـي عنهـا مع مراحل تطـور التاريخ. ومن أجل أن تكـون الولايات المتحدة صادقة مـع نفسها عليها واجب الدفاع عن حقوق الإنسان والديمقراطية

الناشطـون يعرضون خدمـة بدعوتنا إلى المبـادئ الأولى. ولكـن صانعي السياسة يحتاجـون إلى أن يُظهـروا بعض التواضع في تفسير هذه الدعوات في الأعمال اليومية. في أكثر البلدان تظهر الديمقراطية الجماعيـة بالتدريـج فحسب، وتُلزمنا في الوقت نفسه على التعامل مـع حكومات بعيدة عن قواعدنا بشأن حقـوق الإنسـان نظراً لوجود مصالح مهمـة أخرى. وإذا عاملنـا جميع هذه القضايا علـى أنها لا تحل إلا بالإطاحـة بالحكومـة المسيئة ــ أو باستسلامها للضغوط الأمريكية ــ فإننا سنحول كل مشكلة إلى صراع حياة أو موت، إذ ينبغي أن تترك سياستنا الخارجية فسحة للتأثير في ممارسات المجتمعات الأخرى بدون أن نبدو وكأننا نحاول أن ننسفها.

كثير من الألم في السياسة الخارجية ينجم عن الحاجة إلى وضع الأولويات بين الضروريات المتنافسة أو المتصارعة أحياناً. وهذا يتطلب الربط ما بين المثالية الأمريكية والحاجات البراغماتية للوضع المطروح. ورفض القبول بهذه المثالية يميل إلى دمج السياسة الخارجية والسياسة الداخلية كمجموعتين متنافستين تسعيان إلى فرض آرائهما بشأن العدالة من أجل المصالح الشخصية لهما. المبالغة في التبسيط يغري الولايات المتحدة بتوسع مبالغ فيه وتنازل، في السعي إلى فرض آرائها بشأن بنى داخلية مناسبة عن طريق العقوبات والضغط أو غيرها للاستشهاد بقصور شركاء معينين كمبرر للانعزالية.

الصراع الفلسفي الذي شقّ الولايات المتحدة أثناء خدمتي الحكومية كان من الممكن تجاوزه بقيادة رئاسية أخلاقية قوية من نوع قيادة فرانكلين ديلانو روزفيلت الذي قاد دولته المعزولة إلى الحرب العالمية الثانية. ولكن الرئيسين اللذين عملت في خدمتهما لم يلعبا هذا الدور. فريتشارد نيكسون كان لديه خبرة في الشؤون الدولية وله سجل فيها. غالباً ما كان يُلقي خطباً عميقة، ولكن كما سبق لي أن شرحت كان يرتاح في المناورة أكثر من إقناع منتقديه. أما جيرالد فورد الذي جاء إلى السلطة عن غير طريق الانتخاب، فلم يكن لديه الخبرة ولا الخلفية لإدارة جدال عقلاني ـ ومع هذا كنت أعتقد أنه كان يستحق ولاية ثانية، فجمعه ما بين الاستقامة، وسعة الإدراك، والشجاعة هي صفات كانت تمكنه من إعادة بناء الإجماع الضروري.

كما هو معروف بعد أن بدأت فضيحة ووترغيت، وجدت نفسي أحمل دور الرئيس الرئيسي في التعامل مع السياسة الخارجية.فقد كانت مهمة وليست وظيفة وزير للخارجية. كانت مهاراتي التحليل الاستراتيجي والدبلوماسية، وليس المهمة الأساسية السياسية لحشد الدوائر الانتخابية الشعبية لفترة طويلة، والسياسة الخارجية المعقدة.

المثالية الأمريكية، هي السبب الأساسي للجدل القومي لدى كلا الجانبين في النقاش، وهي بالطبع أمارة القوة الأمريكية ـ التعبير عن الإيمان بأن مجتمعنا قادر دوماً على تجديد نفسه، وتجاوز التاريخ وإعادة تشكيل الواقع. ولكن علينا أن نحذر أن الثورة ضد مفهوم القيود لن يصبح السمة الدائمة للرد الأمريكي على السياسة الدولية. ذلك أن الاعتراف ببعض العوائق هو صفة مميزة ولعله ثمن النضج في المجتمعات كما في الأفراد. إن اختبار مجتمع ما ليس رفضاً له ولكنه الفهم العام لعواطفه وانفعالاته. ولذلك فإن المجتمعات المعتدلة ورجال الدولة المعتدلين يقصرون أنفسهم على ما يمكن الحصول عليه بسهولة. أما المجتمعات العظيمة ورجال الدول العظام فيسعون إلى ما هو أبعد من إمكاناتهم. ولكن رفض أية قيود يؤدي إلى إنهاك أو كارثة.

كانت فيتنام فكرة تعلمنا تلك الحدود ـ بشكل جيد جداً حسب تقديري. ومن دواعي السخرية، أن المعالجة التي بدأها فورد وتوجها ريغان كانت غير عادية للغاية كمحاولة لإغراق الولايات المتحدة ثانية

في حماسة مشابهة لحماسة ويلسون تهدد من جديد في توريطنا في كل اضطراب في العالم باسم المهمة العالمية، والمُبرَّرة هذه المرة بأننا القوة العظمى الوحيدة. ولما كنا هزمنا خصومنا العقائديين في الحرب الباردة، بدا كثيرون تواقين إلى إدارة السياسة الخارجية كحملة دائمة من أجل نتائج كارثية ضد جميع الأنظمة التي تسيء إلى حساسياتنا. ولكن إذا كانت الولايات المتحدة ستظل القوة الرئيسية للحرية والتقدم، فعليها أن تعالج مهمتها ذات الطابع الروحي بمفهوم المصلحة الوطنية، وتعتمد على رأسها كما على قلبها في تحديد واجباتها أمام العالم.

محاولة إضعاف السياسة الخارجية إلى صيغة واحدة تعاكس حقيقة العالم المعاصر. في علاقة أمريكا بأوروبا وأمريكا اللاتينية ـ وهي منطق تزدهر فيها المؤسسات الديمقراطية، والحروب بين الدول الكبيرة لا يمكن التفكير فيها ـ لا بد أن تسيطر مبادئ ويلسون. ولكن في آسيا تنظر الدول بعضها إلى بعض نظرة خصومة استراتيجية ومن المستحيل فهم السياسة هناك بدون فهم مبادئ التوازن. وفي بلدان أخرى مثلاً، ذات الأصولية الإسلامية ـ تحكم مشاعر أساسية أكثر ثورية.

الدرس الحاسم الذي تعلمته في خدمتي لدى الحكومة هو الحاجة إلى فهم الدوافع المختلفة التي تضر بالتوازن. فهذه أكبر مهمة أمام أمتنا.

التغيير هو قانون الحياة، وهذا ما يعرفه أي طالب يدرس التاريخ. وأية محاولة لاحتوائه تحدث انفجاراً في مسيرته، وكلما كان صلباً في اتصاله بالوضع الراهن، كانت النتيجة النهائية أكثر عنفاً. ولكن ومن دروس التاريخ أيضاً أنه كلما كان مفاجئاً، كانت الحاجات أكبر لوجود العنف. وسعيد هو المجتمع أو النظام الدولي الذي يمكن أن ينشأ ويتطور بدون عنف ـ على الأقل من دون عنف شديد ـ وبدون نمو متوقف. في مثل هذه الظروف تحل الالتزامات المتبادلة محل القوة ويتحقق التقدم بالإجماع. والولايات المتحدة ـ باستثناء واحد هو الحرب الأهلية ـ قد وجدت نفسها في مثل هذا الوضع. وكذلك الحال بالنسبة للأنظمة الدولية التي لم تشهد لفترات طويلة حرباً كبيرة.

ولكن كلما كان الاضطراب مفاجئاً يقل الاعتماد على الإجماع. فالقوة ينبغي أن تحل محل الشعور بالالتزام. النصر يتحقق بالاستمرارية، والخصومات يجب أن تُستأصل لا أن تستمر. والرموز الكبيرة على هذا الموقف هي الفاتح والنبي، الفاتح لا يخفي قصده، فمهمته هي فرض إدارته، حتى لو استمرت فتوحاته عليه آجلاً أم عاجلاً أن يحول السيطرة إلى شعور بالالتزام. هكذا تحقق الإمبراطوريات شرعيتها. ودور النبي أكثر براعة. فرغم أنه قضية قائمة على قيم مفترضة، فإن قيمه لهذا السبب أكثر شيوعاً واستمراراً. الاستقامة مصدر التعصب وعدم الاحتمال. رمز هذه المرحلة هو المسؤول الذي يقتل الملايين بدون حب أو كره سعياً وراء الواجب المجرد. ولهذا السبب أوجد الصليبيون الخراب والآلام بوصفهم فاتحين.

الفظائـع الجماعية للقرن العشرين ينبغي أن تبين لنـا هشاشة القيود التي تجسد الحضارة. والخبرة الداخليـة والسلميـة والمستقرة للولايـات المتحدة تعز قدرتنا علـى فهم هشاشة المجتمعـات الأخرى أو الأنظمـة الدوليـة. وبفضل تاريخنا وبيئتنا المباركـة، كنا نحاول أن ننظر إلى قوتنـا كإدارة لشؤون العالم واستخدامهـا لفرض خياراتنـا. مثل هذا الموقـف قد ينظر إليه مـن قبل العالم على أنـه موقف هيمنة، وبالتالـي يُواجه بالمعارضة. الاعتماد الشديد على قيمنـا والاعتماد الشديد على قوتنا قد يطيحان بالقيم التي تدير سياستنا.

لهـذا السبـب كنت أجـد صعوبة تجاه السياسـات الخارجية التـي تصوغها الإيديولوجيـات، ذلك أن الإيديولوجيـات تميل إلـى قيادة المجتمعـات كأنظمة دولية تفـوق طاقاتها. والانقسـام الثنائي المزعوم للبراغماتية والأخلاق يبدو لي خياراً مضللاً. فالبراغماتية بدون عنصر أخلاقي تقود إلى فعالية فوضوية، أو وحشية، أو ركود، والإيمان الأخلاقي غير المقترن بإحساس من الواقعية يؤدي إلى الاستقامة الجامدة، والتعصـب وزوال جميـع القيود والتحفظات. ينبغي أن نكون براغماتيين دوماً فيما يتعلق بأمننا القومي. لا نستطيـع التخلي عن الأمن القومي أبداً من أجـل الفضيلة. ولكن خلف أعماق هذه السياسة، يكون تحدينا أن نتقدم بمبادئنا بطريقة لا تعزلنا على المدى البعيد.

لا بـد أن يكتشف كل جيل ذلـك الإحساس من الانسجام بنفسه. وفي هـذا المجال فإن الجيل الحالي والأجيال التي تخلفه يواجه تحدياً خاصاً. لأننا لا نعيش في حقبة استثنائية فقط من المرونة في العلاقات الدوليـة، بـل نعيش أيضاً في فترة توازن عميق حول كيفية نظر الشعـوب والزعماء إلى العالم حولهم. لأن هذا التبدل الفكري في مشهده وتأثيره النهائي يمكن أن يُقارن أو يفوق نتائج اختراع الصحافة المطبوعة منذ خمسة قرون.

قبل الطباعة كانت المعرفة تقوم بالدرجة الأولى على الذاكرة. فمن أجل إنشاء أية معرفة متكاملة كان مـن الضروري التركيز على نصوص يمكن أن يوافق عليها أي واحـد ـ لاسيما النصوص الدينية والأشعار الملحمية. لذلك كانت فترة القرون الوسطى عصراً دينياً بالدرجة الأولى.

أوسعـت الصحافة المطبوعة مدى المعرفـة المتوفرة إلى درجة كبيرة. والإنسـان الذي كان مقتصر المعرفة على الدين والشعر وجد أن معرفته باتت تشمل العالم العلماني. لذا فإن العلم اكتشف مجالات لا يمكن تخيلها، حتى إن شرعية السياسة باتت تعتمد على نحو متزايد على المعايير العلمانية، ومبادئ العقل أكثر من الحق المقدس. لقد اتسع عالم المعرفة بشكل استثنائي.

بالإضافـة إلـى ذلك، المعرفة من الكتب كان لهـا حدودها. فالقراءة صعبة نسبيـاً ومستهلكة للوقت، ولتسهيل المهمة فإن الأسلوب مهم، ويزيد من استيعاب الظواهر العلمية والجمالية. ولما كان من المستحيل لقراءة جميع الكتب في موضوع معين، فضلاً عن جميع الكتب، أو تنظيم كل شيء قرأه بسهولة، بات التعلم

مـن الكتـب استثنائياً في التفكير المتعلق بالمفاهيم ـ القدرة علـى استيعاب المعلومات والأحداث القابلة للمقارنـة وإسقاطها على المستقبل. بهذه الطريقة، فإن الحالة السائدة لتقنية تمنح الأولوية لتعليم يعتمد على المنظور(*) في السياسة والسياسة الخارجية عن طريق الحس التاريخي.

لقد حل الحاسوب (الكمبيوتر) المشكلة إلى حد كبير، في الحصول على المعلومات والمحافظة عليها واسترجاعها. ويمكن خزن المعلومات بطريقة غير محدودة وسهلة وبالضغط على زر تسترجعها، ولاحاجة لتخزينها في ذاكرة المرء أو بذل جهد كبير لجمعها وتخزينها. لذا فإن الدماغ يمكن أن يُدرّب لأداء أغراض أخـرى. يستطيع الحاسـوب أن يوفر مقداراً من المعلومات لا يمكن الحصـول عليها في عصر من الكتب. وهو يرتبها بشكل فعال. ومن يُشغل الحاسوب يلقى مقداراً هائلاً من الوقائع تحت تصرفه على الفور. وفي التعامل مع قرار منفصل مع سياقه، يوفر الحاسوب أدوات لا يمكن تخيلها حتى من عقد مضى.

ولكنـه يُقلص المنظور أيضاً. لأن المعلومـات شديدة الوفرة، والاتصالات مستمـرة دوماً، ثمة نقص فـي التدريـب على أهميتـه. صانعو السياسـة يغريهم دوماً الانتظار كـي تنشب قضية قبـل التعامل معها، والمنـاورات تحل محل الانعكاس كأداة سياسية رئيسية. ولكن أزمات السياسة الخارجية ليست فقط ـ بل لعلها بالدرجة الأولى ـ النتيجة الثانوية أو غير المتوقعة لأحداث معاصرة ـ أو بالأحرى هي النتاج النهائي لعمليـة تاريخية تصيغهـا. لا يتم اتخاذ القرار المعاصـر من خلال الوقائع المعاصـرة فقط بل بالصدى النوري الذي يتفوق على وجهة النظر الأخرى.

مهمـا اختلـف رجال الدولـة في التاريخ، فـإن لديهم إدراك للماضـي ورؤية للمستقبـل. ورجل الدولة المعاصـر تغريـه التكتيكات على الـدوام. والمفارقة أن السيطرة على الحقائق يمكـن أن تقود إلى خسارة فهـم موضوع المسألة، والسيطرة عليها حقـاً. يُخشى أن تتحول السياسة الخارجيـة إلى فروع للسياسات الداخلية بدلاً من التجربة المثيرة في صياغة المستقبل.

مشكلـة معظم الفترات السابقـة أن أغراضها كانت تسبق المعرفة. تحدي فترتنا هو العكس: المعرفة تسبق الأهداف بكثير. ولهذا فإن مهمة الولايات المتحدة ليست فقط أن تجمع ما بين قوتها وأخلاقها، بل أن تمزج ما بين إيمانها وحكمتها.

ملاحظة شخصية

بصفتي صانع سياسة أشعر بضرورة أن أساعد في تحديد العلاقة ما بين السياسة الخارجية الأمريكية البراغماتيـة والأخلاقية. وكما هو من المحتـوم في الأوقات المضطربة، فإن هذه الأحكام تكون متناقضة غالباً. وقد أكد بعض المعلقين أن تأكيدي على أن بعض التناسب في السياسة الخارجية ينشأ عن تفضيل

(*) مظهر الموضوع كما يبدو للعقل من زاوية معينة، أو القدرة على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقاتها الصحيحة أو أهميتها النسبية - المترجم.

النظام على العدالة، الذي يعزونه إلى ألمانيا النازية، ولكن ألمانيا في طليعة شبابي كان لديها حجم كبير من النظام، وقليل جداً من العدالة، إنها لم تكن المكان الذي يوحي بتكريس النظام بالمعنى المجرد.

على الرغم من الانعزال، وعدم الشرعية، والهجرة فإن آرائي في طفولتي قد صاغتها عائلتي أكثر مما صاغتها السياسة بالمعنى المجرد. وفي استعادة للماضي، أجد والديّ قد لخصا جانبي التصرف الإنساني. العملي والأخلاقي. إذ كانت أمي عملية وحيوية وشجاعة تهتم بالضروريات، أما والدي كان عميق التفكير، حساساً، ونبيلاً. يُجسد دائرة العائلة الأخلاقية.

في عام 1946عندما كنت أخدم في الجيش الأمريكي في أوروبا، دخل والدي إلى المستشفى في نيويورك لإجراء عملية لا يرجى منها شفاء. فترك رسالة إلى أخي، والتر (الذي كان يخدم آنذاك في الجيش الأمريكي) ولي. كانت الإشارة الوحيدة لوالدنا إلى أبنائه الحافلة بالدلالة. قد يحكم الآخرون على مدى التزامي بوصاياه الأخلاقية. وأنا أسجل رسالته هنا لأنها تسمح بإيضاح فضل البلد الذي آوى أسرتي حيث العالم الذي فيه يجد لضعيف الأمن والحرية.

بعد بعض الملاحظات الشخصية يمكن قراءة الرسالة (المكتوبة بالإنكليزية) كما يلي: جدك فالك، ذلك الرجل الرائع والأمين، اعتاد أن يقول:Der Mensch Mupseine Schuldigkeit tun (على الإنسان أن ينفذ دائماً التزاماته). هذه الكلمات البسيطة ينبغي أن تكون مبدأً في حياتك. قم بواجبك دوماً نحو أمك بالدرجة الأولى، ونحو أقاربك، والجماعة اليهودية، ونحو هذا البلد العظيم ونحو نفسك.

أعرف الظروف المختلفة في هذه البلاد التي أعطت إنساناً في عمري القليل من الأمل في حياة مستقبلية بحيث أكون مرشداً لك كما كنت في الأوقات الطبيعية. ولكنني أجعل كل قراراتي الشخصية مرتبطة بمستقبلك.

في جميع أوقات الحرب العصيبة كنت على ثقة أن الله سيحميك. وأنا ممتن له لأنه كان معك وإني على ثقة أنك ستسير في الطريق القويم. أنا فخور بك وعلى قناعة أن حياتك في المستقبل ستؤكد اعتدادي بك.

ضع في ذهنك دوماً أننا تلقينا كل الرضى بسبب ما فعلناه للآخرين، حاول دوماً أن تكون طيباً، ومؤمناً، ومساعداً للآخرين، ورجلاً يُعتمد عليه، وغير أناني.

أود أن أراك تكبر وأكون شاهداً على نجاحك وسعادتك. بارك الله فيك. استعاد والدي صحته وعاش حتى عام 1982حيث عايش جميع الأحداث الواردة في هذه المذكرات.